تقديم

بقلم: محمد سعيد طيب (*)

إن المحاور الواعي المتمكن، يذهب بعيداً وراء أفكار وقناعات محاوره، ليقتحم مع قارئه نقاط التفتيش والخطوط الحمراء.. متجاوزاً المألوف من المجاملات، خاصة إذا كانت القضية ذات بعد وطني.. وكان من يحاوره شخصية مثيرة للجدل، وتحظى بهالة من التوهج والحضور الذي يجد قبولاً من فئات والرفض من فئات أخرى.

مركب صعب، ومغامرة تتطلب الكثير من الموهبة والوعي، والكثير جداً من الحرفية والذكاء، الذي يدهش ولا يفاجئ ويثير دون أن يتبسط.

وفق هذه المتطلبات.. وهذا المنحى، تأتي هذه المكاشفات للأستاذ الإعلامي النابه عبد العزيز محمد قاسم، مع ضيفه سماحة الشيخ حسن الصفار، تواصلاً لـ (مكاشفات) الجزء الأول والثاني.. التي كان الهدف منها الجمع بين الرموز والنخب الفكرية المختلفة، على أرضية حوار حضاري يورد المآخذ.. ويتصدى للتهم بكل الصراحة الممكنة والمتاحة عبر قراءة عميقة.. لأطروحات الضيف وأفكاره، مع اتصال مباشر مع معارضيه، لقطع الطريق أمام الذين ربما أساؤوا من حيث ظنوا أنهم أحسنوا.

ولعلني لا أجافي الحقيقة، إن قلت: إن تلك (المكاشفات) قد حققت نجاحاً باهراً في خلق أرضية خصبة لأجواء من الحوار الإيجابي المسؤول.

(*) محامٍ، ناشط وطني معروف.

obeikandl.com

وبقدر ما سعدت بذلك النجاح، كانت سعادتي أكبر عندما طلب مني الصديق الأستاذ/ عبد العزيز قاسم تقديم هذه (المكاشفة)، التي وجدت هوى في نفسي تقديراً للموضوع، وإجلالاً لسماحة الضيف.

فطوال حياتي - المترعة بهموم الشأن العام وكل ما يصب في خانة مصلحة الوطن والمواطن - لم أدع يوماً بأنني من زمرة من يطلق عليهم (المثقفين)، إلا بالقدر الذي يقربني من الدور الذي يجب عليهم الاضطلاع به نحو مجتمعهم، والمسؤولية التي يجب أن ينهضوا بها تجاه وطنهم.. وذلك نابع من إيماني العميق بأن المثقف إنسان بضاعته الأفكار، سواء أكانت تلك الأفكار من إبداعه، أم كانت منقولة من غيره، ولكنه آمن بها، ويرغب في أن يحياها، ويقنع الآخرين بأن يحيوها معه، والأرجح أن تلك الأفكار من النوع الذي من شأنه أن يغيِّر حياة الناس نحو الأفضل، متمثلاً بمقولة ديمقراطيس الخالدة: «إنني أفضل أن أظفر بفكرة تتقدم بها الحياة على أن أظفر بملك فارس»!.. اضطلاع بدور ريادي طليعي تنويري.. يرتكز على مبادئ الحق والخير والعدل.. التزاماً بقضايا المجتمع.. تعبيراً عن مشاعره وأحلامه وآلامه وآماله.

وكان لذلك الدور أثره في احتفائي بقامات سامقة في حياتنا الثقافية والفكرية.. نفر كريم من هؤلاء النخب كانوا محجتي وملاذي، حين تسعدني ظروفي بلقائهم، أو حين لا أعبأ بمشاق الالتقاء بهم.. ففي معايشة أمثالهم، والحوار معهم.. عمارة للعقل، ونماء للعلم، ولقاح للفهوم، فإن كان العقل ينمو بالمعرفة والتثقيف والتحصيل، فإنه يتوقد بالحوار والتواصل والمناظرة، ومن بين هذه الكوكبة، كان هنالك من أضاف إلى معارفي من خبرته وتجاربه، ومن جادلني جدال العالم الواعي المتمكن من معارفه، كما كان منهم من وافقني الرأي دون رياء، أو خالفني فيه دون استطالة.

ويأتي في طليعة تلك الكوكبة التي يرتجى منها علم وصلاح ومداواة لبعض علل وأوجاع المجتمع.. والتي أسعدتني الظروف بلقائها، والاستزادة من علمها وفكرها - وإن أتى ذلك متأخراً: سماحة الصديق الشيخ حسن موسى الصفار، العالم السعودي الشيعي، الابن البار لهذا الوطن.. العاشق له.. والمنتمي إليه دون مزايدة، والمعلن لآرائه وأفكاره في أصول المذهب وفروعه وشعائره دون تعصب وانغلاق.

استوقفتني أفكار وتوجهات سماحة الشيخ الصفار، الداعية إلى الوحدة الوطنية والسلم الاجتماعي، والعدالة، والحقوق المتساوية، والفرص المتكافئة، والمجتمع المتواد المتحاب، والرافضة للتناحر المذهبي - خاصة وأن ثقافتنا الإسلامية متهمة الآن في العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر بأنها تعصبية، تدعم الإرهاب والتطرف، وكراهية الآخر - في حين أن المخلصين من مفكري الأمة، يناضلون لإبراز سماحة الإسلام وتعاليمه في احترام الإنسان، والتعايش بين أبناء البشر.. ولكن - وللأسف - فإن واقع التشنج والاستعلاء غير المبرر والصراع الداخلي بين دعاة الجهوية والقوى والمذاهب، يلغي كل هذه الجهود المخلصة.. إذ كيف يتسنّى إقناع الآخرين - من غير المسلمين - باستعدادنا للتعايش معهم، واحترام حقوقهم في ظل عجزنا عن التعايش فيما بيننا؟

بل وكيف نقنع الآخرين، بأننا مستعدون لقبول الرأي الآخر، والتعايش مع الأديان الأخرى والبشرية جمعاء؟

فلسماحة الشيخ حسن الصفار إسهامات مقدرة في إثراء الفكر الإسلامي.. وإشاعة ثقافة التسامح والتعددية والحوار، عبر أكثر من ٦٠ مؤلفاً، وخاصة في هذا الجانب، الذي استأثر على الكثير من جهده.. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مؤلفاته القيمة: (التعددية والحرية في الإسلام)، و(التنوع والتعايش)، و(التسامح وثقافة الاختلاف)، و(رؤية حول السجال المذهبي)، و(السلم

الاجتماعي.. مقوماته وحمايته)، إضافة إلى موقعه بشبكة الإنترنت، الذي يحتوي على أفكاره التي تبشر بتوجهات الاعتدال والتسامح والتقريب.. والتي تعبر عن قناعات يؤمن بها ويناضل من أجلها.

ففي مؤلفه (الحوار والانفتاح على الآخر) يتجلى إيمانه الراسخ بهذه الفضيلة، حيث تتمحور فكرة الكتاب حول: أن العزوف عن الانفتاح على الآخر، وغياب الحوار بين القوى والأطراف المختلفة في مجتمعاتنا، يعتبر مكمناً أساسياً من مكامن الداء، ومظهراً صارخاً من مظاهر التخلف، وتشترك عوامل عدة في تكريس هذه الحالة المرضية.. فلا بد من تضافر الجهود الواعية لإضفاء أجواء صالحة، ولخلق أرضية جديدة تنمو فيها بذور الانفتاح والحوار، لتتعارف أطراف الحوار مع بعضها، وتكتشف نقاط الالتقاء، وتتبين موارد الاختلاف، ولتثري كل جهة معارفها وأفكارها من خلال انفتاحها وحوارها مع الآخرين، وليأخذ الاختلاف مساره الإيجابي في إذكاء حالة التنافس المعرفي، شحذاً للإرادات والهمم لتقديم العطاء الأفضل والأنفع للوطن.

ومن مؤلفه (نحو علاقة أفضل بين السلفيين والشيعة) الذي أعتبره منهاجاً قويماً للتعايش بين المذاهب أقتطف هذه الاستضاءة المشعة:

«مهما كانت إشكاليات السلفيين على الشيعة، وإشكاليات الشيعة على السلفيين، فإن الجميع يعيشون في وطن واحد، لا يستطيع أحد الطرفين إبادة الآخر - ولا أظن أنه يفكر في ذلك - وهم جميعاً أهل لهذه الأرض وأبناء لترابها، ولا يحق لأحدهما المزايدة على الآخر في الأصالة وعمق الانتماء.

أما المراهنة على تغيير المعتقدات والقناعات بالترغيب والترهيب فقد ثبت فشلها، حيث كان التيار السلفي في أوج القوة والنفوذ، وتوافرت له الإمكانات المادية الضخمة، خاصة أثناء الطفرة الاقتصادية، وواتته الظروف الدولية والإقليمية أيام

الحرب الباردة والمواجهة بين الشرق والغرب أثناء الجهاد الأفغاني، بينما كان الشيعة في موقع المحاصرة والاستهداف.

فهل استطاع السلفيون، مع كل نفوذهم وتأثيرهم على مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، ومختلف الأجهزة والمؤسسات، أن يحدثوا تحولاً أو تغييراً في معتقدات وتوجهات الوسط الشيعي؟

بل على العكس من ذلك، زادت حالة التحدي ونمت بعض التوجهات المتشددة عند الشيعة، كرد فعل على الوضع السائد.

إن بقاء حال التشنج والقطيعة، لم تعد تتحمله ظروف البلاد، وقد صرح بذلك كبار المسؤولين في القيادة السياسية، وفي طليعتهم سمو ولي العهد، الذي بادر بالدعوة إلى حوار وطني بين مختلف المذاهب والأطياف.. وجاءت توصيات اللقاء الأول والثاني، لتؤكد هذه الحقيقة، وتدعو الجميع إلى الانصهار في بوتقة الوطن، مع الإقرار بالتنوع المذهبي والفكري.

فالتعايش هو الخيار المنطقي والصحيح، ولا بديل له إلا التفريط بمصلحة الوطن وتمزيق وحدة الأمة، ومساعدة الأعداء على نيل أطماعهم ومآربهم.

فالتعايش لا يتحقق إلا بالمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص، دون تمييز أو تصنيف وبالاحترام المتبادل، والتوقف عن التعبئة والتحريض من كل جهة تجاه الأخرى»[١].

وسماحة الشيخ الصفار يتسم بثقافة دينية منفتحة، تكره الجمود وتدعو إلى النقد والمراجعة، فنجده في مؤلفه (السلم الاجتماعي، مقوماته وحمايته) يدعو إلى ذلك عبر هذه الكلمات:

---

(١) نحو علاقة أفضل بين السلفيين والشيعة - حسن موسى الصفار - دار الواحة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٢٥هـ ٢٠٠٢م ص ٤٩ - ٥٠.

«إن تراثنا الإسلامي بكل مذاهبه، يحتاج إلى غربلة ممّا تراكم عليه من عصور التخلف، كل المذاهب تعاني من هذه المشكلة، ولكن الجرأة على نقد التراث، وعلى نقد السائد والمألوف لا يتحلى بها أي أحد، وإنما تحتاج إلى أشخاص لديهم الإخلاص الكافي، ولديهم الشجاعة الكافية لكي يعلنوا الحقائق، ولا يتأثروا برأي الشارع أو الرأي السائد المشهور المخالف للحق والصواب»(١).

وقد ظل سماحة الشيخ الصفار في دائرة الضوء - طوال السنوات الماضية - كضيف لوسائل الإعلام المرئية والمقروءة، والمنتديات الفكرية، والمجالس الثقافية، مؤصلاً لدعوته التسامحية في مداخلاته القيمة وإجاباته الشافية، وتحضرني الآن إجابته المفحمة لصحيفة (الحياة) رداً على تساؤلها: من كنت تمثل في الحوار الوطني؟ يرى بعضهم أنك كنت تمثل الخط المعتدل للطائفة الشيعية في السعودية؟

فأجاب سماحته: «أنا أمثل الرغبة الموجودة على مستوى الوطن، لنشر ثقافة وفكر الاعتدال والوحدة والتقارب.. في رأيي ينبغي تجاوز التصنيفات المذهبية، أنا لا أرى أنني كنت أمثل طائفة معينة أو مذهباً. وحتى المؤتمر لم يكن المقصود منه تمثيل مذهبي، وإنما هو مؤتمر لطاقات من أبناء الوطن آلمها هذا الجفاء والتباعد، والتقت لوضع منهج لتجاوز هذه الحالة.. كنت أمثل في المؤتمر هذه الرغبة وهذه الإرادة، دون أن أعطي نفسي الحق بادعاء تمثيل شريحة معينة، ولكنني أصنف نفسي ضمن هذا الاتجاه المعتدل الذي أرى أنه اتجاه الغالبية في المملكة ومن كل الطوائف»(٢).

*****

(١) السلم الاجتماعي، مقدماته وحمايته - حسن موسى الصفار - دار الساقي بيروت - الطبعة الأولى - ٢٠٠٢م ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) صحيفة الحياة - ٢٠٠٣/٩/٣٠م.

إن أفكار، ومعتقدات المرء قد تلتقي أو تتقاطع مع أفكار الآخرين، وللحقيقة أقول: إنني وجدت نفسي في توافق تام مع أفكار سماحة الشيخ الصفار، الداعية إلى التعايش والسماحة والحوار بين طوائف وقطاعات المجتمع.. وأستطيع أن أدعي - بلا فخر - أنني كنت من أوائل الداعين إلى حوار وطني[1] تدعو له الدولة وتنظم فعالياته وتشارك فيه النخب المتنوعة (من أولي الألباب) للوصول إلى رؤية مشتركة لخدمة قضايا الوطن.. مؤكداً أن الخطوة الأولى لإنجاح هذا الحوار تتمثل في ضرورة بدء حوار فاعل وصريح، بين النخب الفكرية والثقافية في مجتمعنا السعودي، وذلك لقناعاتي بأن ساحاتنا المحلية قد أصبحت تعاني - منذ سنوات - من احتقان فكري بسبب الفهم السلبي، لإيقاع الحياة من حولنا، التي أسهمت في تقسيم المجتمع الثقافي محدثة ما يشبه القطيعة الثقافية بين نخبه.

وسرعان ما تحولت تلك القطيعة إلى معركة، نتيجة لغياب فضيلة الحوار الفكري، وثقافة التسامح، ولجوء بعض رموز النخب الثقافية - وبانتهازية صارخة - إلى أساليب القمع والإقصاء وتأليب السلطة، وخروج الجميع بخسائر فادحة انعكست - سلباً - على تطور الفكر في الوطن، وأضرت بالمسار الثقافي وبمصداقيته وقدرته على الإقناع، وتأهله لممارسة دوره الفاعل في إشاعة الوعي وترقية الحياة.!

إن ممارسة النخب الفكرية والثقافية - بمختلف توجهاتها - لدورها في تفعيل ثقافة الحوار بروح وطنية ومسؤولية واعية، بعيداً عن الاستبداد والإقصاء والوصاية وتبني الآراء المسبقة، والتصورات النمطية، وادعاء امتلاك الحقيقة، أصبح اليوم ضرورة وطنية، لصياغة جبهة وطنية متماسكة، تأميناً للوحدة الوطنية والتصدي للتحديات الخارجية والداخلية - على حد سواء.

---

(١) مجلة روز اليوسف العدد ٣٣٢٧ وتاريخ ١٦ مارس ١٩٩٢ م.

ولا بد لنا من أن نقر ونعترف، بأننا نعيش أزمة فكرية خطيرة، وأن فكر ومعالجة الأزمة لا يمكنه أن يولد عفوياً من طائفة أو فئة بعينها - بل يأتي نتيجة مخاض شرائح واعية ومؤسسات قوية في المجتمع، تستطيع أن تقف موقف الند مع ثقافة العولمة وما تشكل حديثاً من ثقافات غرور القوة والغطرسة.. والوصاية على الآخرين.!

وفي ظل هذه التداعيات، أطبقت على عالمنا العربي أضلاع مثلث الرعب، المتمثلة في الإرهاب، والضعف الاقتصادي، والاحتلال الأجنبي على مدى الأعوام الماضية، مفرزة الكثير من الاحتقانات، والمواجهات التي كانت لها تأثيراتها السلبية على العلاقات بين الغرب والعالم العربي والإسلامي، بعد أن عصف هدير الدبابات بمقدرات التنمية والإنتاج بمنطقتنا، مؤدياً إلى تزايد معدلات البطالة، وتأكّل الطبقة الوسطى، والعجز عن تلبية الحاجات الأساسية لبعض فئات المجتمع، وتزايد الضغط على مرافق الخدمات الاجتماعية من صحية وتعليمية وسكنية، وتراجع نوعياتها ومستوياتها، وانحسار الدور المأمول للنخب المثقفة، وتدني حجم الصادرات، وازدياد نفوذ أصحاب الأموال والمنافقين والانتهازيين والتافهين والمتسلقين وعديمي المواهب والقدرات.!

إن معركتنا الكبرى - قبل التنمية - ليست بين الإسلام والغرب كما يحاول أن يظهرها بعضهم، ولكنها في حقيقتها معركة داخلية، بين الاعتدال والتطرف، وبين التسامح والتعصب، وبين الانفتاح والانغلاق.

معركة يجب أن يتصدى لها - بالدرجة الأولى - المثقفون الواعون، ومنظمات المجتمع المدني، بإشاعة ثقافة الحوار والاعتدال والتسامح والانفتاح، على الرغم ممّا يجده المثقف اليوم من العنت والرهق وهو يحاول أن يخاطب العالم لتفهم قيمه وثوابته.. العالم الذي يرى أن المقاومة والفداء ليست إلا وجهاً آخر من وجوه

الإرهاب المفخخة.. ويمكن في أحسن الأحوال - إن أحسنوا الظن بنا - تفسيرها وإيجاد المبررات لنا على أنها تعبير عن يأسنا وإحباطنا.

ففي الأوطان المتنوعة، التي تتعدد فيها الأعراق والمذاهب والطوائف، تصبح المواطنة.. هي الوسيط الذي يؤلف بين المتنافرات، وللمواطنة مقومات موضوعية مثل: الجغرافيا والتاريخ والمصلحة المشتركة والإدراك بضرورة التكامل الوجودي، وبأن كل جزء يكمل الآخر ويستقوي به، كما أن هنالك عوامل ذاتية أهمها الوعي المشترك بضرورة التوحد، والرغبة المتبادلة في تغليب الولاء الأكبر للوطن على الولاءات الأدنى (القبيلة، الإقليم، الطائفة) لذلك فإننا في حاجة ماسة إلى نسيج فكري، يتبنى هذه الحقائق ويؤمن بها - بل يذهب أبعد من ذلك لفتح باب الاجتهاد للتوفيق بين ضرورات التأهيل والتحديث، وعلى الصعيد النظري علينا أن نجري اجتهاداً جماعياً يعالج ثنائية الوافد من الماضي والوافد من الخارج ليؤصل لمرجعية ثقافية جديدة.

إن اصطلاح المواطنة - وفق النظم الدستورية - اصطلاح ذو ظلال، فهو من ناحية معيار قيمي يضبط به الأداء العام على كل مستوياته، ومن ناحية أخرى فهو مفهوم يؤطر الحقوق والواجبات، دون حصر أو استثناء - إلا وفق الدستور نصاً وروحاً - فالمواطنة أيضاً ممارسة وفعل، فبغير الممارسة لا يمكن تعميق المفاهيم الوطنية أو إحكام حياكة النسيج القيمي للمجتمع.

فالثقافة المرتجاة تبنى على أسس راسخة تجذر فرضيات، أن لا مناص لنا من التعايش السلمي مع محيطنا الإقليمي والعالمي.. وأن نلم إلماماً شمولياً بالملل والنحل والسياسات والتوجهات المحيطة بنا، وأن ندرك ما طرأ وما سيطرأ على هذا العالم من متغيرات مفهومية ومعرفية وسياسية، وكل ذلك يستلزم منا ألا ننظر للموروثات الثقافية نظرة قداسة، وألا نجعل من الهوية عقيدة.. وبهذا الأسلوب - وحده -

نستطيع التمييز بين ظواهر الأشياء وجواهرها، وبين الثابت والمتحول، وبين الممكن والمستحيل، وبين العادات والعقائد.

إن من العبارات المضيئة المناسبة في هذا المجال التي طالما شاقتني معنى ومبنى، مما تنسب لأحد علماء المسلمين: «قام الإسلام على شيئين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة».. فأين نحن كمجتمعات مسلمة من هذه العبارة، وتراثنا وموروثنا الديني مترع بثروة عظيمة، وزخم هائل من التوجهات والإرشادات التي تجعل الوحدة والسلم في طليعة الفرائض والواجبات؟

ولكي لا نذهب بعيداً فنحن - في المملكة العربية السعودية - نتطلع إلى أن نعيش في مجتمع واحد ويجمعنا وطن واحد ودين واحد ومصير واحد.. لتكون التربة مثالية لنمو غرسة السلم الاجتماعي، الذي أعني به التعايش السلمي بين جميع أفراد وطوائف المجتمع، في الوقت الذي تبقى فيه الفروقات والتباين مسلمات واقعية، وتلك سنة الله في خلقه.. وأمام ناظرينا تجارب الإنسانية المتمثلة في الكثير من المجتمعات الغربية والأوروبية، وخير شاهد على ذلك، المجتمع الأمريكي الخليط بكل شتاته، من أعراق وجنسيات ومعتقدات وثقافات، تتعايش كلها في بوتقة واحدة متجانسة لا يضرب بعضهم رقاب بعض تمذهباً وتحزباً.!

*****

وأخيراً.. أعتقد أن الوصول إلى مجتمع يعيش استقراراً نفسياً، وتصالحاً بين جميع أفراده - وإن تعددت رؤاهم وتنوعت اتجاهاتهم ليس من المستحيلات - فهي مسؤولية جماعية مشتركة.. تقع - في الدرجة الأولى - على عاتق النبهاء من أبناء الوطن: ذوي الأحلام والنهى.. وأولي العزم والحس الوطني الرفيع.!

فبداية.. يجب أن نعمل لتنقية هواء الفضاء من حولنا من ملوثات التأخر، والجهالة، والتخلف المتمثلة في تقليديتنا الموروثة التي لا تعرف ولا تعترف بثقافة المعايشة والحوار.. والتي تتبنى - بلا وعي - ثقافة إقصاء الآخر، بمنطق أن الساحة لا تتسع لاثنين.. إما أنا وإما أنت.. ثقافة ازدراء الآخر وكراهته وتهميشه وعدم الحوار معه، من منطلق عدم فهم العقلانية، والتعددية، وممارسة أدب الاختلاف، والتفرقة بين الرأي وصاحبه.. حتى اتسعت الفجوة بين الفكر والممارسة، وبين ما يقوله المرء وما يفعله - بل في ظل الغياب التام للفكر في بعض الممارسات العامة.

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة فتح نوافذ المجتمع وأبوابه لتسمح بدخول تيارات أجواء الحرية باعتبارها حقاً وليست منحة.. ونبتة قدسية تحتاج منا إلى الماء والهواء والتربة الخصبة والضوء الساطع والرعاية.. حرية مسؤولة واعية تضع في - الاعتبار الأول - حاضر الوطن وتستشرف مستقبله، وتتفاعل مع قضاياه وأمانيه وأحلامه، مصاغة من الفعل الإنساني العملي القادر، المعبر عن الإرادة الإنسانية الحرة الخيرة، النابذة للتعصب والعنصرية، وضيق الأفق الذي يعدّ الاعتراض معارضة، والمعارضة خيانة عند من يدعون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة.

*****

وأجد من واجبي - هنا - قبل أن أختتم هذه المقدّمة - أن أعيد التأكيد على ما سبق أن أبديته في مناسبات مختلفة.. وعبر لقاءات مكتوبة أو مسموعة.. بما يعدّ في صميم موضوعنا هذا.. أو قضيتنا هذه:

نحن نمّر بمرحلة دقيقة وفاصلة.. وهذا ليس كلاماً إنشائياً مكرراً.!

نعم.. نحن نمّر بمرحلة دقيقة وفاصلة فعلاً.. ومطلوب منّا - جميعاً - أن نعي المرحلة - بكل ظروفها وإفرازاتها وضغوطاتها.. وما يحيط بنا.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين. وبعد، فقد تشرفت بالعمل مع أستاذي الكبير الراحل د.عبد القادر طاش يرحمه الله تعالى كمعد لبرنامجه السياسي والفكري (مدارات الأحداث) الذي كان يبث من قناة (اقرأ) الفضائية، وأتذكر أنه في أواخر عام ١٤٢٠هـ وفي أثناء اجتماع دوري خاص بالبرنامج لاختيار مجموعة من الموضوعات الحديثة والفكرية التي تصلح مادة للحوار في حلقات البرنامج، استمزج يرحمه الله رأيي حيال تناول مسألة التفاهم والتقارب المذهبي بين طائفتي السنة والشيعة في برنامجنا، وكان متحمساً للموضوع ومنحازاً بشدة إلى القيام بدور إعلامي يخدم مثل هذا التفاهم الذي تحتاجه الأمة، وخصوصاً بعد أن ضرب إخوتنا في لبنان مثالاً متميزاً للتعايش بين أكبر طائفتين إسلاميتين هناك.

أخبرته يرحمه الله بما أتوقعه من ردود فعل قد تطال سمعته في الأوساط الإسلامية السنية المحلية، التي تتميز بموقف معارض في جملته لمسألة التقارب، وأبديت بعض التوجس والخوف اتكاء على ما أحمله من تراث وتربويات في محاضني السلفية التي نشأت حيال إخوتنا من طائفة الشيعة.. ابتسم كعادته يرحمه الله وقال: آن الأوان لكي يكون لأمثالنا خطوات إيجابية ومشاركة حقيقية في دفع مسيرة التفاهم والتقارب بين طوائف الأمة من أجل الالتقاء على نقاط مشتركة توحدنا ضد العدو الخارجي، وكي ننعتق من رؤية سلبية متوارثة لا تخدم أحداً..

وباشرت من فوري الاتصال بالإمام الشيعي الشهير محمد مهدي شمس الدين يرحمه الله، وكانت أطروحاته التقريبية الجريئة تمثل آنذاك أنموذجاً متميزاً يجعلها

Obeikandl.com

جديرة بتسليط الضوء عليها ومناقشتها إعلامياً، إضافة إلى تمكنه يرحمه الله كعالم دين ومفكر إسلامي من الطراز الأول، إضافة إلى ثقله في طائفته، ما جعله خياراً مميزاً لنا كي نبدأ من عنده من أجل خدمة هدف التفاهم والتقارب.

وبالفعل رتبنا حلقة تبث على الهواء مباشرة من مقره في بيروت، وأتذكر الآن بعد مضي أكثر من خمس سنوات وقار ذاك الإمام وعلمه وانفتاحه، وعلى الرغم ممّا وفرته له في تلك الحلقة من مداخلات من قبل شخصيات شرعية سعودية إلا أنه استطاع ببراعته وحكمته أن يقنعنا جميعاً بأن التقارب بين طائفتي الأمة هو الحل الأمثل وبداية الطريق الصحيح كي تنهض الأمة من كبوتها، وأن اجترار الماضي بكل مآسيه لا يخدم أحداً في راهن اللحظة التي تمر بها أمتنا، فيما دعا عقلاء الطائفتين لدعم هذا الاتجاه وقطع الطريق على الغلاة من كلا الطرفين ممن يريدون أن يملوا على الأمة أجندتهم التي تفرق ولا تجمع، وتشغلها بخلافات جانبية عن عدوها المتربص بها.. وكان ذلك آخر العهد به حتى سمعت بموته بعد ذلك يرحمه الله.

*****

سمعت نتفاً من أحاديث متفرقة عن الشيخ حسن الصفار وتاريخه السياسي المعارض وتزعّمه لمدرسة الشيرازيين في السعودية، وصادف أن دعاني الناشط الوطني المعروف محمد سعيد طيب إلى داره العامرة بجدة في بدايات العام ١٤٢٤هـ وقد حلّ الشيخ الصفار ضيفاً عليها، وبادرني الشيخ بشكر أخوي على ما أقدمه من أطروحات فكرية معتدلة برأيه في ملحق (الرسالة) الذي قال: إنه يحرص على قراءته، فيما قدمت له ممتناً لثنائه كتابي (مكاشفات الجزء الأول) كإهداء أخوي.

في تلك الليلة، ألقى علينا الشيخ بحضور نخب حجازية متعددة الأطياف، كلمة حيال رؤيته للتعايش بين الطوائف والتيارات الفكرية وضرورته في راهن المرحلة التي نمر بها كدولة وكيان ومجتمع..

openkandil.com

وفوجئت بعد أيام قليلة بمهاتفة كريمة منه وقد انتهى من قراءة الكتاب، أثنى خلال حديثه معي على منهجية الكتاب وطريقته، وأشاد بروح الحوار الذي حاولنا أن نتبناه للتقريب بين أطياف المجتمع..

لمعت من حينها في ذهني فكرة استضافته في صفحة (مكاشفات) وفتح ملف طائفته، بيد أنني لم أخبره بذلك لعلمي بأنني سأخوض في خطوط حمراء متوترة وألعب فعلاً بالنار، وقد قدّرت وقتها وتيقنت بأن اللحظة لم تحن بعد لمناقشة صريحة ومستفيضة لملف إخوتنا من طائفة الشيعة بالسعودية؛ لحساسية هذا الملف سياسياً من جهة وللتراكمات التاريخية المتوارثة في الأوساط الشرعية من جهة أخرى، فيما كانت الأجواء المجتمعية والسياسية غير ملائمة لفتح حوار مذهبي في صحيفة رسمية سعودية.

*****

في أوائل شهر جمادى الأولى من العام ١٤٢٥ هـ عقدت العزم على حوار الشيخ حسن الصفار منطلقاً من دعوة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز (كان ولياً للعهد إذاك)، وذلك إيماناً مني بالواجب الوطني وقد أضحى ملف إخوتنا سلاحاً بيد الكاوبوي الأمريكي يلوّح به في كل مناسبة، لاسيما بعد أن جثم في خاصرتنا الشمالية محتلاً عراقنا الأبيّ، إضافة إلى ما أحمله من إيمان عميق بعد تجربتي مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين بضرورة التقارب بين طوائف الأمة، إضافة إلى أنني رأيت بعض الليبراليين المحليين يحاولون مغازلة هاته الطائفة بعد إدراكهم لعجزهم عن إيجاد جذور شعبية في الوسط الآخر على الرغم من الإمكانات الإعلامية المسخرة لكثير منهم.

كل تلك الأسباب مجتمعة دفعتني لأن أبادر في مفاتحة الشيخ حسن الصفار كي يحل ضيفاً علينا في (الرسالة) وهدفي الأساس إبراز النقاط المشتركة التي

يمكن لعقلاء الطائفتين في مجتمعنا الاتفاق عليها، تكريساً للوحدة الوطنية وتعزيزاً لنسيجنا الاجتماعي المتماسك، وتفويتاً للفرصة على الكائدين لوطن الحرمين والرسالة، ووافق سماحته مرحباً بي وبحواري..

وعكفت من فوري على كتبه وأشرطته ومؤلفاته وسألت رموزاً شيعية عن مكانته في الطائفة وعن أسماء معارضيه ومؤيديه، وتواصلت مع رموز سنية التقته وسألتهم عنه، إلى أن كوّنت صورة واضحة عن شخصيته وعن فكره إضافة إلى أصول المذهب الشيعي وفرقه وتياراته، واستعنت بالمتخصصين الذين أكرموني بالمعلومات التي يحتاجها صحافي مثلي لمواجهة هذا السياسي المعمّم، والرجل الذي تعلم المنطق ودرس علم الكلام من صغره بالقطيف والنجف وقم مروراً بعد ذلك بسنواته التي غدا خلالها معارضاً سياسياً، إذ لم أنس جذوري الصحافية في غمرة هدفي الرئيس، فأردتها مكاشفة مثيرة تحمل بعض الروح السجالية المذهبية، كما تنطوي على استفزازات مهنية تجعلني أقتنص منها (مانشيتات) كبيرة لصحيفتي.

*****

لا أدري لماذا بزغت فجأة صورة الإمام محمد مهدي شمس الدين وأنا في غمرة حماسي وسجالي مع الشيخ حسن الصفار في منزله بالقطيف، ففي الوقت الذي كان سماحته توفيقياً ويجيبني وهو ينظر إلى الأهداف الأسمى والأبعد وأنا أناكفه وأماحكه، وعلى الرغم من أنني تمكنت من استفزازه حتى خرج عن هدوئه ورتمه الوقور لمرتين، إلا أنني أشهد له بأنه كان في قمة التسامح وبعد النظر، وأعاد لي صورة شمس الدين عندما كان يتلقى أرتال التهم القاسية بابتسامة وسعة صدر مدركاً أنها تراكمات قرون ونتاج لتربية أجيال ضاربة الجذور في عمق تاريخنا الإسلامي.

وعلى الرغم من وعدي وجزمي للشيخ حسن الصفار بأنني سأنشر له المكاشفات كاملة وبحرفيتها دون تغيير، وقد قطعت له ذلك الوعد وفي نيتي إقناع

رئيس التحرير بذلك اتكاء لمساحة الانفتاح الإعلامي، إلا أنه كان في شك كبير مما وعدته به وإن لم يصرح بذلك، فقد استقرأت ذلك الشك في ملامح وجهه، وأدركت لاحقاً بعد مطالعتي للمكاشفات في صورتها الأخيرة سبب ذلك، وقد قدّرت بعدها أنني سأكون محظوظاً إذا استطعت نشر نصف المكاشفة بسبب ما تطرقنا إليه من محاور غاية في الحساسية ونقاط توتر مذهبية تفتح، لم تألفها الصحافة السعودية. وإذا كان المراقب الإعلامي الرسمي فقط هو من كنت أحمل همّه في مكاشفاتي السابقة، إلا أنه بالتأكيد سيصطف معه في هذه المرة أصوات كثيرة ومؤثرة من التيار الأقوى في المجتمع، معارضين هذه المكاشفات مع الشيخ الشيعي، وربما تصل بي المآلات إلى أن أدفع الكثير وأقله فقداني لوظيفتي!!..

وأنا ألوب في تلك الحيرة والتردد حول توقيت نشر المكاشفة، إذا بتقرير للكونغرس الأمريكي يصدر في بداية شعبان ١٤٢٥ هـ ليحسم لي الأمر، حيث تطرق ذلك التقرير السنوي إلى ملف الشيعة بالسعودية وما يعانونه من تمييز وظلم وما إلى ذلك مما يفعله كهنة العالم الجدد من خلط لبعض الحق بكثير من الباطل، فكانت الفرصة الذهبية التي أتتني كهدية من السماء، فاهتبلناها فرصة وباشرنا نشر المكاشفات كاملة والحمد لله، ما جعل الكثيرين من إخوتنا في تلك الطائفة وغيرهم لا يصدقون أعينهم وهم يقرؤون لأول مرة في تاريخ الصحافة السعودية حواراً عريضاً وصريحاً عن أحوالهم وظروفهم ومطالبهم ومعتقداتهم ما دفعهم للجزم بأن أوامر رسمية كانت وراء هذا الحوار، ووالله لم يكن الأمر كذلك، لأن الحوار أصلاً أجري قبل ذلك التقرير الأمريكي القميء الذي كان السبب الأقوى إلى جانب سياسة الانفتاح الإعلامية التي انتهجتها وزارة الإعلام في نشر هذه المكاشفات بحرفيتها.

والحمد لله فقد وجد هذا الحوار مكانه في تاريخ الصحافة السعودية كأول عمل إعلامي يناقش وضع هذه الطائفة بكل الصراحة والشفافية في صحيفة رسمية.

*****

يبقى أن أشير إلى صدى واسع ولغط كبير أحدثه نشر المكاشفات في ملحق (الرسالة)، وتلقيت عتابات عديدة ومعارضات ورسائل تبدي أسفها لنشرنا حواراً مع شيخ شيعي، إضافة إلى تناول منتديات (النت) بكل تياراتها لمادة الحوار، والعجيب أن لغطها الصاخب لم يقتصر على إخوتنا في المملكة بل كانت بالحدة نفسها وأكثر في منتديات إخوتنا الشيعة. وقد خرجت من النطاق الجغرافي المحلي لتتجاوزها إلى البحرين والكويت وإيران والعراق ولبنان وسوريا حيث تابعتها النخب الشيعية هناك، وتتالت المداخلات التي بحثت في دقائق الاختلاف وتفصيلاته، وابتعد كثير من أحبتنا المتداخلين في مناقشة مشروع الشيخ حسن الصفار للتقارب والتعايش، بل أكثر من ذلك اعتذر كثير من الشرعيين المحليين عن المداخلة عندما طلبت منهم ذلك على الرغم من دالتي عليهم لأنهم أدركوا مباشرة حساسية وتبعات وصعوبة هذا الملف الذي فتح، فيما اتجه بعضهم إلى هوايته الدائمة والقديمة بالاستعداء عند الرسمي، والحمد لله تفهم عقلاء المجتمع ما فعلته وقد حمدوا لاحقاً هذا الحوار عندما رأوا إجابات الشيخ الصفار التي تفيض بالوطنية وروح التسامح وتلك الأطروحات التقريبية بين الطائفتين إلى درجة تجريمه شتم الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وغيرها من المسائل التي تقف كسدود منيعة وعقبات كأداء في طريق التفاهم بين طائفتي الأمة.

obeikandl.com

وإن ردّد عدد غير قليل من المتابعين أن تلك الإجابات التي أوردها الشيخ الصفار في مكاشفاته كانت تتدثر مبدأ (التقية) الشهير لدى الشيعة، إلا أن عدداً غير قليل في المقابل عدّها خطوة جيدة ومهمة في طريق التفاهم، ورأوا ضرورة التواصل مع مثل هذا الصوت العاقل وإشهار طروحاته المعتدلة بين أوساط الطائفتين، ولعل ما قام به الشيخ الجليل والداعية الشهير عوض القرني من زيارة تاريخية للقطيف وإلقائه كلمة في مجلس الشيخ الصفار وفتحه حواراً مع النخب الشيعية كان يصب في هذا الباب.

وأرى أخيراً أن هذه المكاشفات فتحت كوّة مهمة كي يحسم المترددون من النخب الشرعية والفكرية في وطني أمرهم، ويتجاوزوا خوفهم من سلطة العوام أو بعض النخب الشرعية التي ربما كان لها موقف من مسألة التفاهم والتقارب، ويتصدى فريق منهم للحوار مع هذه الأصوات العاقلة من الآخر الطائفي، ويرسموا للمجتمع آفاقا متسامحة أمر بها الإسلام أولاً ويحتاجها وطننا ثانياً، كيما تسود روح صحية جديدة في سمائنا.

ولست بالساذج هنا لأتصور أن تراكماً تاريخياً عميقاً سينتهي بحوار هنا أو محاضرة هناك، بل أدعو في هذا المقام إلى ضرورة تأمل مشروع الشيخ حسن الصفار للتعايش الذي طرحه في هذه المكاشفات. صحيح أن بعض أحبتنا الشرعيين رماه بما أسلفنا بالتستر خلف (التقية) أو التمترس خلف السياسة، غير أنني أرى أن المصلحة في كل الأحوال التعامل مع هذا الظاهر ومحاولة التفاهم والتقريب لمصلحة الأمة. وأقول هذا ونحن في فسحة من الوقت والظروف المثالية المناسبة، وأخشى أن تدهمنا الظروف السياسية بتقلباتها ومكرها، فيضيع مثل هذا الصوت العاقل أمام زعيق الغلاة وصخبهم، وما نراه اليوم في العراق من اقتتال دامٍ بين الطائفتين ربما كان مثالاً لما أرمي إليه، وكان سببه برأيي ضياع صوت العقلاء

أمام أصوات العامة المشحونين بتأليب الغلاة، فيما دخل بينهم الأمريكي باستخباراته، إضافة إلى بعض القوى الإقليمية ضمن حسابات سياسية.

في لبنان ثمة أنموذج جيد للتفاهم والتعايش، ونقول للتفاهم والتعايش وليس للتنازل عن الخصوصيات دون قناعة أو من خلال الإكراه، وتبقى هذه الكلمات صرخة غيور على أمته ولفتة محب وحادب على وطنه يرجو أن يصل صداها إلى نخبنا الشرعية الناضجة.

*****

وبودي أن أنوّه في مقدمتي هنا إلى أن الشيخ علي آل محسن قد قدم مداخلات ردّ فيها على الباحثين عبد الكريم الحطاب وبندر الشويقي، ولم أتمكن من نشرها كاملة لسببين موضوعيين، أولهما أن معظمها لم ينشر في ملحق (الرسالة)، وثانيهما أن العدل والمهنية يقتضيان إعطاء الأخوين فرصة للرد عليه؛ لأنه قد دخل في تفصيلات مذهبية، وقدّرت أن استغراقنا في هذا الباب لن ينتهي، وكذلك ربما لا يكون هذا الاستغراق في تفاصيل الخلاف هدف الكتاب الرئيس، وإن كنت موقناً بضرورة ذلك في مراحل متقدمة كخطوة لازمة في طريق التفاهم والتقارب.

وأحب كذلك التنويه إلى أن بعض المداخلات المنشورة في الكتاب قد ارتدت ثوب الشدة وقسوة العبارات وغلظتها، وقد هممت بحذف ذلك كله إلا أنني ارتأيت، بعد استئذاني للشيخ حسن الصفار، إبقاءها كي تعطي صورة حقيقية أمام الباحثين والقارئين للمشهد المذهبي السعودي طالما أردنا التوثيق التاريخي للحراك المذهبي الواقعي وليس المثالي.

ختاماً أقدم شكراً خاصاً للشيخ حسن الصفار الذي قابل كل استفزازاتي الصحافية برحابة صدر، وكذلك لقيادة التحرير التي لولا جرأتها لما كانت هذه

المكاشفات، ولكل الإخوة الذين استجابوا لدعوتي بالمداخلة، وأساتذتي والفضلاء الذين استعنت بهم في تحرير مادة هذه المكاشفات خاصة أخي القريب إلى نفسي هاني المرشد من أبها، غير ناسٍ مدير مكتب الشيخ الصفار الأخ الدؤوب ميثم الفردان الذي تحمل كثيراً من إزعاجي، وانتهاء بزملائي في ملحق (الرسالة) أنور العسيري وأحمد العمودي وياسر باعامر ولأخويّ عبدالقادر رضوان وعادل قربان ولمخرجنا البديع مصري عباس.

عبدالعزيز محمد قاسم

جدة - ١٤٢٦/٢٥/٩ هـ

*****

obeikandl.com

الشيخ حسن الصفار في أولى مكاشفاته مع (الرسالة):

حديث سمو ولي العهد شكّل لنا إيذاناً بمرحلة جديدة، وزادت تطلعات الناس وانتعشت آمالهم.

(التقية) إحدى ضحايا الصراع الطائفي وهو مفهوم ديني تنكّر له بعضهم وهذه أدلتي.

في مراحل نشأتي الأولى لم يكن لدي انفتاح على أي عالم من أهل السنة، وثقافتي في حدود البيئة الشيعية فقط.

على الرغم من دعواتنا للعلماء من أهل السنة لم يزرنا سوى الشيخ صالح الدرويش، وكان حضوره حدثاً لمجتمع القطيف.

بعض المناهج في التعليم تتحدث عن بعض الممارسات الشيعية حديثاً قاسياً، ولكن التوجيه في بيئتنا يوضح لنا الأمور بشكل يتناسب مع مذهبنا.

يجب أن يركز التعليم على المشتركات العامة وألا يكون هناك تركيز على التحريض ضد الآخر.

*****

obeikandl.com